

فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك» أخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِينَنَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَرْزَقَهُ إِنتُمْ كَانَتْ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32] ﴿وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله، وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لثلاث تحبل، إما لغرض فاسد، أو ما أشبهه ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَنٍ بِقَرِينَةٍ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر .

﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى: ﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالوهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء، وقد يسوا من الآخرة، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل . وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَبْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ فيه قولان، أحدهما: كما يبس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يحتمعوا بهم بعد ذلك لأنهم لا يعتقدون بعثاً، ولا نشوراً، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه، والثاني: يعني من مات من الذين كفروا فقد يبس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله عز وجل .

تفسير سُورَةُ الصَّفِّ

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٢) ﴿يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (٣) إنكار على من يعد وعداً، أو يقول قولاً لا يفى به،

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعد أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أنا رسول الله ﷺ وأنا صبي، فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبدالله، تعال أعطك، فقال لها رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: تمرأ، فقال: «أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة» وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج، ولك علي كل يوم كذا، فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم. قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوسٍ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فنزلت هذه الآية، وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي. روى الإمام أحمد، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا للصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال» ورواه ابن ماجه. ﴿كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوسٍ﴾ أي ملتصق ببعضه ببعض، مثبت لا يزول.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِرْ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي لم توصلون الأذى إلي، وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ مَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا﴾ [الأحزاب: 69] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأمسكها الشك والحيرة والخذلان ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾ يعني التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملاء بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي فلما جاءهم أحمد، أي المبشر به في الأعصار المتقدمة المنوه بذكره في القرون السالفة، قال الكفرة: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى تَحَرُّفٍ تُشْجِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِمٍ ﴿١٠﴾﴾ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَى تَحَرُّفٍ تُشْجِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِمٍ ﴿١٠﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، التي هي محصلة للمقصود، ومزيلة للمحذور فقال تعالى:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾
﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي من تجارة الدنيا، والكد لها، والتصدي لها وحدها.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به، ودللتمكم عليه غفرت لكم الزلات، وأدخلتمكم

الجنات، والمساكن الطيبات والدرجات العاليات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَتَسْكُنُ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣)

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله، ونصرتهم دينه تكفل الله بنصركم، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ نَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [٧] وقال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: 40] وقوله تعالى: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي عاجل. فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا نَظَائِفَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (١٤)

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى ابن مريم حين قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازرك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاء إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» حتى قبض الله له عز وجل الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازره وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله الأنصار وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم. ﴿فَأَمَّا نَظَائِفَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة، فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قاتل منهم: إنه ابن الله، وقاتل: إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قاتل: إنه الله. تعالى الله عن ذلك كله. ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصاري ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ.